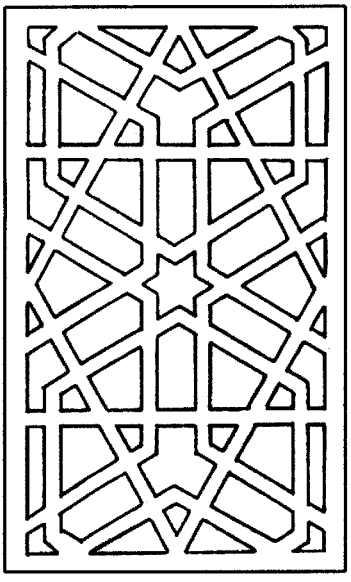

الزمرة الرابعة

خصائص التعليم الإسلامي ، وأساليبه

- تمهيد –
- استمرارية التعلم
- دراسة العلم لذاته
- الاستقلال المالي لموارد التعليم
- التفرغ التام للدرس والتدريس
- أثر مكان التعليم وزمانه ومكانه
- استحضار التصور العام للعلوم
- قرآنية التعليم، وعربيته
- آداب التعلم والتعليم
- اختيار المتعلمين أساتذتهم
- الإخلاص في التأليف
- الملاءمة ومراعاة الفروق الفردية
- التدرج الشامل في التزود العلمي
- الجمع بين الإدراك والحفظ
- توثيق الارتباط بالكتب

تمهيد

يهدف هذا البحث إلى تقديم صورة معبرة عن معالم الصرح التعليمي الإسلامي ، وأركان ذلك البناء التربوي الذي تمخضت عنه المكاسب الثقافية الأصيلة، والتفوق المعرفي الذي أعطى للحضارة الإسلامية طابعها المتميز فيما لا تزال شواهده وبصماته جلية معروفة على مستوى العالم، بما لا يدع مجالا للتشكيك به أو التهوين من شأنه .

وبالرغم من أن الخصائص والمميزات في التعليم تتفاوت عادة بين مرحلة وأخرى، وبلغة العصر " تشتق لكل مرحلة أهدافها ... " فإن ما سيأتي بيانه يصدق على التعليم الإسلامي المتواصل، للناشئة وغيرهم ، في جميع مراحله على الجملة من البداية إلى النهاية (مرحلة الإجازة) ويقتصر التفاوت على درجة تحقق ذلك، وهي تختلف في حالة التعمق عن حالة الإلمام وفيما بينهما، دون غياب الجوهر الذي يعطي ذلك التعليم شخصيته الإسلامية .

ويتناول موضوع البحث الأساليب التعليمية، بالإضافة إلى المبادئ الحاكمة للتعليم ، أي الخصائص والمميزات .

وتجدر الإشارة إلى أن المناهج التي تأصلت في عصور التراث لا تزال لمساتها قائمة على نطاق ضيق في بعض البلاد حيث ظلت متمثلة في طريقة الحلقات العلمية ، وكذلك في المؤسسات التعليمية التي لم تهب عليها رياح

التغـــيير وما زالت تؤتي ثمارها على نحو ما، فهي تعتبر نموذجا لما كان عليه الحـــال في العهود التاريخية وتوضح ما تأتي الإشارة إليه من أوصاف مقتبسة من الكتب الخاصة والعامة .

والكتـــب المســـتمدة منها مقولات هذا البحث بعضها وضع للغرض الـــتربوي أو التعليمي، والمنشور منها قليل، وبعضها اشتملت على جوانب ذات أهمـــية تـــربوية مع أنها وضعت لترجمة الأعلام من شتى التخصصات، حيـــث احتوت على بيان المسيرة التعليمية التي سلكها أولئك الذين أصبحوا مـــادة لكتـــب الطـــبقات التي قدمت وصفا تفصيليا لما درسوه من علوم ، ومـــا قـــرؤوه - في فترة التأهيل - من كتب، وطرائق الأساتذة الذين تلقوا عنهم ، وأحوال التلامذة الذين تعلموا منهم .

والغرض من البحث ليس تاريخيا، وإنما هو إبراز ما خفي من خصائص التعلـــيم الإسلامي للإفادة منها، وقد يستدعي ذلك بعض المقارنات الوجيزة بما هو مطبق حاليا لمجرد التوضيح .

٣٧ استمرارية التعليم

إن التقسيم الثنائي للأفراد في الأمة الإسلامية بأنهم عالم أو متعلم ، ولا خير فيما وراء ذلك - كما جاء في الخبر - جعل التعليم الإسلامي لا نهاية له إلا بمفارقة الإنسان للحياة، وكان العلماء خير من يطبق مبدأ " اعمل لآخرتك كأنك تعيش أبدا " ، فقد كانوا دائبين في تحمل العلم وتبليغه ومذاكرته حتى وهم في مرض الموت أو سياقه، وبعضهم كان في ساعات الاحتضار يحفظ أبياتا من شواهد العلم وضوابطه [١] .

أما بداية سن التعليم فقد عرض لها العلماء في موضوع صحة دعوى الرواية للحديث، ومال أكثرهم إلى أنها الخامسة، وبعضهم ناط ذلك بالمقدرة على عقل الأمور وإدراكها .

وبمراعاة البداية والغاية أصبح التعليم مستمرا، فكل من أراد العلم وجد الفرصة إليه، وقد كان مألوفا طلب العلم ممن جاوزوا سن الصبا والشباب، بل ممن بلغوا من الكبر عتيا، فكل إنسان وطاقاته وصبره ومصابرته. دون إخلال بأفضلية المبادرة للطلب في مقتبل العمر وريعان الشباب وسن الطفولة .

إن خصيصة الاستمرارية في التعليم الإسلامي أورثت مزايا لا تنكر، وأهمها تكرار المحاولة لمن لم يوفق في بداية أخذه العلم ، وإمكان التنقل بين

---

(١) معجم الأدباء ٦ / ٣٠٩ إدارة وتثمير ممتلكات الوقف (البنك الإسلامي للتنمية) ٢٢٩ .

فـــروعه والتقلـــب في فنونه بما يتلاقى مع استعداد المتعلم وحاجته، وتكوين المشاركة في أكثر من علم ، والإلمام بجميع العلوم وأكثرها .

ومن الأمور التي كانت عونا على الاستمرارية رفع الحرج - اجتماعيا - عمـــن طال في طلب العلم مكثه، فليس هناك شهادات لها سنوات يعتبر من لم يحزها خلالها قد تخلف عن الركب، واستهدف للنقد والتعيير بما يثبط همته ويقعـــد به عن بلوغ آمالها ولو بعد حين، وهو خير من آفة التعلق بالأقدمية في حـــيازة الشهادة واعتبارها قرينة على التفوق مع أنها قد يرافقها الاتكال عـــلى تلك الدرجات العلمية وتوقف صاحبها عن مواصلة التعلم والبحث، والاسترواح إلى ذلك وتوقف العطاء العلمي .

ومما أعان على ذلك أيضا انتفاء النفقات الباهظة لمتابعة الدراسة، فنظام الوقـــف - كما سيأتي - قد تكفل بنفقات التعليم، وكذلك الأمن من القلق الـــذي ينتاب المتعلم بتأخر أهليته للتوظف في ظل ربط كثير من المهن ببلوغ مســـتوى علمي معين، فالاحتراف كان يتم مستقلا عن تحصيل العلم، فقد كـــان مناطه الدربة والخبرة العلمية، وفي ظل التعليم المستمر يمكن أن يحترف ثم يتعلم ، أو يجمع بينهما، أو يتعاقب التعلم والتكسب دون أن ينشب ذلك حائلا أو عائقا عن بلوغ المتعلم ما يأمله [1] .

(١) التعليم في عصر السيرة والراشدين، للعمري ٢١ تعليم المتعلم للزرنوجي ١١٥ .

٣٨ دراسة العلم لذاته

لقد كان استحضار النية الصالحة للتعلم أو التعليم عاملا أساسيا فيهما، إذ يقبل الدارسون على طلب العلم، والمدرسون على بذله، ابتغاء المثوبة ودوام الأجر الموعود به في حديث " إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث .. إحداها : علم ينتفع به " فكان من النادر أن يقصد المتعلم الغايات المادية الزائلة، أو المآرب الدنيوية العاجلة، ومن كانت هذه بواعثه نظر إليه على أنه نشاز ولقي التشهير والنكير، وقد ذم النبي صلى الله عليه وسلم من طلب العلم ليماري به السفهاء أو ليجادل به العلماء أو ليصرف به وجوه الناس إليه .

وليس معنى هذا أنهم ركزوا على الهدف الأخروي وأهملوا التأهيل للحياة العامة، بل جمعوا بين كل ما يعد الإنسان لممارسة حياته والتزود لآخرته : ﴿ وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلاَ تَنسَ نَصِيبَكَ مِنْ الدُّنْيَا ﴾ [1] .

إن هذه الخصيصة حملت على التعمق في العلم ولو انقطعت في سبيل ذلك الأعمار وحالت المنية دون قطف ثمرة الجهد ، فحسب المتعلم

(١) القصص / ٧٧ .

- أو المعلم - أن يسهم في خدمة الأمة، وأن يقوم بأحد فروض الكفاية وهو العمل على بقاء العلوم قائمة بحملها ونقلها وقطف المجتمع آثارها .

لقد رأينا كيف أن الأهداف المادية للتعلم طغت في عصرنا على واجب الاعتناء بالعلم لذات العلم، كابتغاء الشهادات المؤهلة للتوظف، أو الدرجات العلمية المؤدية للترقي، أو الألقاب العلمية التي لها وقعها بين الناس، فمثل هذه الأهـــداف أدت إلى الاغترار بها والركون إليها وصرفت عن الهدف الأسمى وهو تعلم العلم للعمل ولنشره وأداء أمانته [1] .

(١) تذكـــرة السامع والمتكلم، لابن جماعة ١٦ و ٨٧ الفقيه والمتفقه، للخطيب ٢ / ٨٧ المدخل لابن الحاج ٢ / ٦٣ تعليم المتعلم، للزرنوجي٢٧ الشخصية الإنسانية في ضوء القرآن الكريم، لغـــراب ٤٦، التربـــية الإســـلامية والمشـــكلات المعاصرة، للنحلاوي ٤٢الأساس العقائدي للتربـــية ، لعزام (المؤتمر العالمي الخامس للتربية الإسلامية ٢/ ٤٣٦) منهج التربية الإسلامية لقطب ٢ / ٢٩ .

٣٩ الاستقلال المالي لموارد التعليم

مـــن أهـــم المزايا للمؤسسة التعليمية الإسلامية استقلال مواردها المالية مـــن خلال نظام الوقف، فقد نتج عن ذلك أكبر الأثر على المؤسسة والمعلم والمتعـــلم ، وحتى الموارد المقدمة على شكل وصايا أو هبات من أولي الأمر لم يصـــحبها نفـــوذ يذكر في توجيه المسيرة التعليمية، لأنها لا يبقى من آثار من بنوها إلا الرسم وتدار إدارة ذاتية ممن يتولى مشيختها .

إن الوقـــف نظام إسلامي - بالصورة القويمة التي طبق عليها منذ عهد النـــبوة - وإن كان معروفا من حيث الأصل لدى الأمم الأخرى، والطريقة الـــتي يدار بها من خلال ناظره وشروطه المبينة في صكوك الوقف تقوم على اختيار من فيهم القوة والأمانة ، أو " الأرشد " بعبارة تلك الصكوك .

كمـــا أن المهـــن العلمية التي كان يزاولها العلماء خارج إطار الولايات المـــنوطة ببيـــت المال كانت تمول أيضا من الوقف، وتحظى بالاستقلال التام الذي يضفي عليها المهابة والأمانة والاستقامة، ويجعل شؤونها من المهام العامة التي تتم تحت سمع الناس وبصرهم ، فيندر فيها الخروج عن الطريق السوي ، فإن وقع يعالج بالنقد والإصلاح بالحسبة والتقويم [١] .

---

(١) مقدمة ابن خلدون ٤٣٤ من روائع حضارتنا، مصطفى السباعي ١٣٢ و ١٣٤ دائرة المعارف الإســـلامية المختصرة، جب وكريمر ٣٠٢ الدارس في تاريخ المدارس للنعيمي صفحة ١٠ فما بعدها، إدارة وتثمير ممتلكات الوقف، (البنك الإسلامي للتنمية) ٢٤٢ .

٤٠ التفرغ التام للدرس والتدريس

إعطاء العلم حقه لا يكون بغير الانقطاع التام له، وقد قيل فيما يؤثر عن بعض السلف : العلم لا يعطيك بعضه حتى تعطيه كله، وإذا أعطيته كلك فلست على ثقة في أن يعطيك بعضه . ومفاد هذا أن إعطاء الإنسان كل اهتماماته للعلم شرط، وليس بوجود الشرط يوجد المشروط في حين أن تحقق المشروط لا بد له من وجود الشرط وهو إعطاء الشخص كل اهتمامه للعلم .

وقد كان الانقطاع كلية للعلم سمة العصور المنوه بها سواء في أخذ العلم وحمله، أو أدائه ونقله، وساعد على ذلك توفير المورد المالي الكافي مضموما إلى ذلك الزهد والقناعة، ونتج عن ذلك تحلي العلماء والمتعلمين بالصبر والمصابرة، والجد والمثابرة، واجتماع الخاطر وانعدام الشواغل أو الصوارف عن العلم، وظهر أثر ذلك جليا في الكم الكبير من المؤلفات، والإتقان لمضمون المقالات وشكلها، فقد كان العلم منتهى آمالهم وملء رغباتهم .

وليس المراد بالتفرغ للعلم المفهوم المعاصر بأن لا يرتبط المتعلم بوظيفة أو مهنة، فإن هذا هو المظهر المادي للتفرغ وقد لا يوجد حقيقة بسبب الاهتمامات التي تنازعه فضلا عن التشتت الفكري الناشئ عن افتقاد التوجه للعلم ونذر النفس له وإرجاء كل ما وراءه إلى ما بعد التأهل التام [1] .

(١) التفكير فريضة إسلامية، للعقاد ٨٥ الرحلة في طلب الحديث، للخطيب البغدادي ٨٠ المحدث الفاصل بين الراوي والواعي، للرامهرمزي، الإلمام في طريق الرواية والسماع، للقاضي عياض .

٤١ أثر مكان التعليم ، وزمانه ، ومعاييره

يترك مكان التعليم المناسب بصماته على المتعـــلم ، إذ يهيئ له الأجواء المعززة للهدف الباعث على التعليم. وقد كان مكان التعليم المسجد وما ألحق به من المدارس الموقوفة، وهي كانت تدار بمثل ما يجري في المسجد من هدوء ومهابـــة وروحانـــية، ولذلك ظلت تلك المدارس تعيش أجواء المسجد حتى في حال انفصالها وبنائها مقصودة لذاتها، فقد كان المسجد أو المصلى الخاص بالمدرسة أهم معالمها، وكانت أشبه ما تكون بأماكن الاعتكاف وهي تعتبر ســـاعات المنام والطعام خلاله جزءا منه، وكانت المدارس تمثل مواقع للرباط العـــلمي ، ومعاقل تأهيل للجهاد الفكري ، بل كانت أحيانا تبنى في الثغور كأربطة فعلية .

أما زمان التعليم فقد كان مقسما طبقا للتقسيم المثالي الرباني إلى فترات مواكـــبة لأوقات الصلاة، وكانت الصلاة تتخلل أزمنة التعلم بمثابة الفواصل الروحانية والتطبيق العملي لأجزاء من المقرر المدروس في مجال العبادات .

وأمـــا مقـــولات العلم فقد كانت محكومة - دون قسر ولا حجر - بالمعـــايير الإسلامية المؤصلة بحسب ما يجب اعتقاده أو عمله، وما يجوز، وما يســـتحيل، وبمـــراعاة أصول الثبوت العقلي والشرعي، واستحضار الأحكام

التكليفية في تلك المقولات، والأحكام التي يقتضيها وضع الشارع من صحة وبطلان وسبب ومانع واشتراط .

وهـــذا كلـــه يحقـــق الملاءمة بين العلم والعمل، والانسجام بين الفكر والسلوك [1] .

(١) إدارة وتثمير ممتلكات الوقف (البنك الإسلامي للتنمية ٢٣٨) من روائع حضارتنا، مصطفى السباعي ١٢٩ ، أصالة حضارتنا العربية، ناجي معروف ٣٥١ منهج التربية الإسلامية ، محمد قطب ١/ ٣٩ الأساس العقائدي للتربية (المؤتمر العالمي الخامس للتربية الإسلامية) محفوظ عزام ٢ / ٤٣٦ .

٤٢ استحضار التصور العام للعلوم

لا يخفى أنه صار من مميزات عصرنا الحاضر التخصص والاقتصار على واحد من الفنون العلمية إلى درجة المبالغة في القطيعة بين العلوم حتى نشأت محاذير عملية معروفة من كون المتعمق في علم غريبا كل الغربة عن العلوم الأخرى، وفي العهود السابقة كانت تلك المحاذير مأمونة من خلال تكوين المتعلم تصورا عاما شاملا للعلوم، وذلك من خلال التلقي عن الأعلام من ذوي المشاركة وتعدد الاهتمامات، أو الاطلاع على الكتب المؤلفة لهذا الغرض، كالفهرست لابن النديم، وكتب أخرى بعده .

وهناك مادة ظلت مقررة إلى آخر فترة قبل تطوير الأزهر تدعى " مبادئ العلوم " وفي مخطوطات المكتبة الأزهرية عشرات المؤلفات فيها، وهي تعطي التصور الأساسي لكل علم من حيث موضوعه وتسميته واستمداده ومنزلته وأهم مقولاته .

وقد ظهر هذا في مقدمات الكتب في شتى العلوم باسم " المبادئ العشرة " .

إن هذا قد أورث تكاملا بين فروع العلم من جهة، وتحديدا لمفاهيم كل منها بعيدا عن التداخل أو الازدواج، كما أوجد عنصر التشويق للاستزادة من العلوم وتكوين المشاركة العملية بين عدد غير قليل من علماء كل عصر وأفذاذ كل مصر[1] .

(١) أسلوب النظم وتطوير مناهج التعليم، أحمد خيري كاظم (صحيفة المكتبة المجلد الثالث العدد الثالث) ٢٣ مفتاح السعادة، طاش كبرى زاده، تذكرة السامع والمتكلم، لابن جماعة ٥٧ .

٤٣ قرآنية التعليم ، وعربيته

العلـــوم الـــتي كـــان يتلقاها الناشئة ومن بعدهم في شتى المراحل هي في طريقة تدريسها ذات طابع قرآني وميسم عربي :

فمن حيث قرآنية التعليم كانت دراسة العلوم كلها مرتبطة بشكل وثيق بخدمة كتاب الله تعالى، والاستمداد منه، والاستشهاد بآياته، بل مراعاة نهجه وأســـاليبه، وهـــذا ينسجم مع الموقع الذي تحتله العلوم الشرعية في النفوس بسبب كونها وسائل لفهم القرآن والعمل به، وهو متفق مع النشأة التاريخية للعلـــوم العربية، كالنحو، والصرف، والبلاغة، والكتابة ... إلخ ، حيث إنها وضعت أصلا لضبط معرفة القرآن وبيان معانيه .

أما عربية التعليم فهي واضحة من كون العربية لغة المؤلفات في العلوم، بالرغم من تنوع أقاليم المؤلفين ومواطن دراسة تلك الكتب، وكان من أول مـــا يهـــتم بـــه المتعلم إتقان العربية ولو لم يكن بحسب نشأته من أهلها ، بل كانت عناية الأعاجم بالعربية أكثر من أهلها، وهذا واضح من استعراض المعاجم اللغوية والكتب المؤلفة في علوم العربية .

واليوم انعكس الوضع حيث صارت العلوم تدرس في أكثر البلاد العربية بغـــير اللغـــة العربية، واستدعى ذلك الألفة بالمراجع الأجنبية والانقطاع عن التراث المدون بلغة القرآن[1] .

---

(١) الأســـس القرآنية للتقدم، محمد أحمد خلف الله ٣٦ أهداف المدارس الإسلامية (مجلة المسلم المعاصر العدد ٩٣) ٩١ منهج التربية الإسلامية، محمد قطب / ٢٩ .

٤٤ آداب التعلم والتعليم

آداب التعلم أو أخلاقياته ، وكذلك التعليم ، كانت إحدى اهتمامات العصور التي هي موضوع البحث عن الخصائص فيها. وهي أحيانا تأخذ جزءا من علم الأخلاق ، أو علم الآداب الشرعية ، وهذان العلمان اختفى الاهتمام بهما بعدما غلب عليهما في المناهج التربوية الحديثة علم النفس وعلم التربية الحديثة من خلال مقولات تتسم بالجانب التجريبي ويختفي منها الجانب الروحي الذي هو لب الأخلاق .

وأحيانا يظهر الاهتمام بالأخلاقيات بصورة مستقلة حيث تؤخذ مباشرة كمادة منفصلة، أو كمقدمات، أو أجزاء متميزة من علوم أخرى، كعلم مصطلح الحديث الذي يقوم على الرواية بالتحمل والأداء ومراعاة أصولها وشروطها وآدابها .

- وهناك كتب خاصة في آداب التعلم والتعليم، معروفة منها على سبيل المثال :

- تعليم المتعلم آداب التعلم الروحي للزرنوجي .
- تذكرة السامع والمتكلم في آداب المعلم والمتعلم لابن جماعة .
- آداب الإملاء والاستملاء للسمعاني .

- الجامع لأخلاق الراوي والسامع ، للخطيب .

وليســـت مادة هذه الكتب نظرية للاستظهار أو الاطلاع، بل هي ذات طـــابع عملي تطبيقي، وتشتمل على الكثير من الوصايا والحكم والحكايات التي تروي التجارب وترسم النماذج المثلى [1] .

(١) التربية الإسلامية وفلسفتها، للأبراشي ٢٢ التربية الأخلاقية الإسلامية، يالجن ١٣١.

٤٥ اختيار المتعلمين أساتذتهم

لا يخفى عدالة الطريقة التي كان يتم بها اختيار (الشيوخ) إذا قورنت بالطريقة التي تتبع في تعيين المعلمين حسب الإجراءات الآلية، إذ يصير للإنسان من الأساتذة من لا رأي له ولا إدارة في اختيارهم ، في حين كان المتعلم يختار معلمه من خلال انتقاء الحلقة التي ينضم إليها أو المدرسة التي ينتسب إليها، وأحيانا البلدة التي يرتحل إليها لأجل التلقي عن عالم مشهور، وكثيرا ما كانت تجلب للمدن الرغبة في سكناها بتوطين عالم كبير فيها .

ولهذا كان من سمات تلك العصور الاستكثار من الشيوخ، ونجد هذا في التزام كتب التراجم تعداد الشيوخ لأن الأخذ عنهم كان مقصودا من التلاميذ . وكان من مقومات الشخصية العلمية آنئذ تعداد مجموعة من كبار العلماء ممن اتبع للشخص التلقي عنهم . ولم تكن هيئة التدريس - كما هو الحال الآن - بمثابة شخصية اعتبارية لا يلحظ فيها الأشخاص الطبيعيون الذين تتكون منهم .

ثم إن الاختيار للمعلم كان ينشأ عنه قيام علاقات وثيقة بينه وبين تلامذته وتتحول أحيانا إلى الزمالة (الأقران) ، وكان يرتبط بذلك الاختيار أيضا التأثر السلوكي بما عليه الأساتذة والمحاكاة لهم في مناهجهم ومواقفهم بحيث تكونت منهم في عصر واحد أو عصور متعاقبة ما يمكن تسميته المجموعات العلمية الخاصة، كمجموعة ابن تيمية مثلا [1] .

(١) تذكرة السامع والمتكلم، لابن جماعة ٥٩ ــ ٦٠ خلق المسلم، محمد الغزالي ٥ القيم الروحية في الإسلام، أحمد فؤاد الأهواني ١٢٠.

٤٦ الإخلاص في التأليف

إذا كانت المعطيات العصرية قد جعلت من الأمور المسلمة أن يستهدف من التأليف الكسب المادي إلى جانب النفع المعنوي، وأن تهيمن قضية حقوق التأليف على مسيرته بصورة تؤثر على تداول الكتب وذيوعها فإن هذا - مع قيام بعض المسوغات الشرعية له - لا تخفى آثاره السلبية على توفير أوعية العلم من كتب وبحوث ودراسات ومقالات، وقد كان ذلك مباحا للراغبين، أو بالعبارة المألوفة آنئذ : محل إجازة لكل مستجيز، ولم يكن للهدف المالي أثر يذكر إذا استثنينا حالًات الإهداء للملوك والولاة، وهو كان يكلف أصحابه قريبا مما يحصلون عليه، لأن النسخ التي تهدى كانت تزخرف ويعتنى بها حتى سميت " نسخا خزائنية " .

وكما اختفى الهدف المالي فإن هدف الحصول على الشهرة كان نادرا، فقد هضم المؤلفون أنفسهم وحكموا أهواءهم، وتحروا الحذر من شوائب القصد الدنيوي ، حتى إن كثيرا من المؤلفات اعتبرت مجهولة المؤلف لأن أصحابها لم يذكروا أسماءهم في مقدماتها أو خواتيمها، وضاعت أغلفتها التي عليها أسماؤهم .

إن إخلاص أولئك المؤلفين ظهر أثره في خلود ذكرهم ودوام الانتفاع بمؤلفاتهم رغم تمادي العصور، فقد قيض الله لتلك الكتب من أخرجها ونشرها بعد مئات السنين من موت أصحابها، وذلك عاجل بشرى هؤلاء العلماء ، وما عند الله خير وأبقى[1] .

(١) دائرة المعارف الإسلامية، المجلد الثاني / ٢٣١ .

٤٧ الملاءمة ومراعاة الفروق الفردية

إن أمثل أحوال التخصص في علم أن يكون تلقائيا بكامل إرادة المتعلم، دون أن تسـوقه إلى ذلك النظم أو تغلبه القواعد الإجرائية، أو تحول رغباته الممنوعات والقيود .

وقـد كان اعتبار العلم الشرعي عماد التعليم مدعاة لفسح المجال طيلة عمر الإنسان لكي يتوجه إلى أي تخصص يريده، لأن الأهلية العامة موجودة، وهـي الصعيد المشترك ، فلم يبق إلا التعمق في جانب من الجوانب التي لها علاقة بتلك الأهلية .

وهذا أوضح تطبيق لتكافؤ الفرص، وتهيئة الأجواء للمشاركة في العلوم التي كانت إحدى مميزات تلك العصور .

كمـا أن غلبة الإطلاق (الحرية وعدم القيود) على طريقة التعليم من خـلال الحلقات أو المدارس التي أتاحت مراعاة الفروق الفردية على أوسع نطاق، كما مكنت ذوي الأهلية من التفوق والشهرة والنبوغ .

وفي الوقـت نفسـه كـان التداخل بين الدارسين من حيث أعمارهم وأعـراقهم واخـتلافات ألسنتهم وألوانهم مدعاة للتنافس والتسامي وارتقاء الهمم في ظل التوجيه النبوي الشريف : " ليس منا من لم يوقر كبيرنا ويرحم صغيرنا ويعرف لعالمنا حقه " [١] .

(١) ديمقراطية التربية الإسلامية سعيد إسماعيل علي ٢٠٦ .

٤٨ التدرج الشامل في التزود العلمي

إن فكـــرة التدرج بوجه عام ليست غريبة عن شتى الثقافات من حيث مـــناهجها وطـــرائقها ووسائلها، ولكن المقصود هنا أن التدرج كان يطبق في جمـــيع مقـــولات العلوم المراد دراستها مع التناول لها بمستويات متزايدة في القدر ، حيث يدرس المتعلم من خلال كتيب صغير جميع المسائل معروضة على مستوى الأساسيات فقط ، ثم يأخذ كتابا آخر أكبر قليلا يكون شاملا أيضـــا لجميع المسائل ، وهكذا تتوالى الحلقات المتزايدة في الكبر دون إخلال بمقومـــات العـــلم ، وبصورة يرسخ معها التصور العام لذلك العلم . وهذا ضـــروري جدا في العلوم التي لا يستفيدها المتعلم إلا بمعرفة جميع مسائلها، كالـــنحو مثلا . فإن دراسته بتجزئة مقولاته وتوزيعها على سنوات مراحل دراســـية أدت إلى النفور منه ، وعدم الحصول على طائل، لأنه لا يقدم على الجزء الثاني إلا بعد أن ينسى الأول وهكذا .

وقد ظهرت هذه الخصيصة في المؤلفات في معظم العلوم، إذ في كل منها حلقات شاملة متصاعدة في المستوى. وعلى سبيل المثال: لابن قدامة في الفقه سلسلة بدأها بكتاب العمدة ، ثم المقنع ، ثم الكافي ، ثم شرح مختصر الخرقي (المغـــني) . ولابـــن هشام في النحو : الأزهرية ، ثم قطر الندا ، ثم شذور الذهـــب ، ثم التوضيح شـــرح الألفية . كما أن له في فلسفة النحو قواعد الإعراب، ثم مغني اللبيب. ونحو هذا نجده في أكثر العلوم [1] .

(١)جـــامع بيان العلم وفضله، لابن عبد البر ١ / ١٢٥ تذكرة السامع والمتكلم، لابن جماعة ٤٨ مقدمـــة ابن خلدون ٥٠٢ الرسالة المفصلة لأحوال المتعلمين، للقابسي ٣٠٣ آداب المعلمين، لسحنون ١٠٢ مقدمة ابن خلدون ٥٠٢ .

٤٩ الجمع بين الإدراك والحفظ

لـــئن لم تكن هذه الخصلة من المميزات الخاصة بالتعليم الإسلامي، فإنها ظهـــرت بشكل جلي فيه، لما تحققه من التكامل بين إدراك مقولات العلوم (فهمهـــا) وبـــين استظهارها (حفظها) وكان الغرض من الحفظ تسهيل العـــلم والتطبـــيق ، وليس التأهيل للامتحانات التي تشكل في عصرنا معاناة للتلامذة وإشقاقا عليهم .

ولقـــد أصبح من المعروف في التعليم الإسلامي الاهتمام الأكيد لدرجة التلازم بين هذين العنصرين الأساسين لحمل العمل ونقله، وبالرغم من الحملة الجائرة على الحفظ (ربمـــا بسبب المبالغة فيه لدرجة الاقتصار عليه في بعض الأوســـاط ، أو لتسويغ التقاعس الملحوظ عن الحفظ في هذه العصور) فإن الحفظ كان له شـــأن كبير من خلال حفظ نصوص القرآن الكريم والحديث الشريف، بل أصبح الحفظ مع الوعي (الإدراك والفهم) شعارا على التفوق والـــبراعة، فمن الأمثلة العلمية : " من حفظ حجة على من لم يحفظ " ومن شعر الحكمة :

إذا لم تكن حافظا واعيا فجمعك للعلم لا ينفع

ومرتبة (الحافظ) في طبقات المحدثين هي مما يضفي على القلة النادرة .

ولتسهيل الحفظ تم استخدام النظم لجمع مقولات العلم في كمية محدودة وبأســـلوب الشعر الميسور حفظه (الرجز) وما أكثر المنظومات والألفيات

في كـــل علم وفن، وبعضها تناول الآداب الشرعية والأخلاق وآداب التعلم والتعليم .

وقـــد اســـتدعى الاهتمام بالحفظ وسائل وطرقا مســـاعدة له ، فهناك الضـــوابط العلمية المصوغة في أبيات أو عبارات لحفظ ما لا بد من حفظه، كما أن هناك المتون وهي خلاصات محررة للعلوم بقصد استحفاظها وجمعها في الصدور .

وهـــذه المـــتون كانت مستهدفة بالاختصار المتتابع وبالنظم ، كما أنها حظيت بالشروح والتعليق عليها [1] .

(١) مقدمة ابن خلدون ٥٤٣ تقييد العلم، للخطيب ٣٨ .

٥٠ توثيق الارتباط بالكتب

الكتاب هو المعلم الصامت ، وهو منطلق التعليم، بل هو البداية والنهاية وبينهما المعلم ، فإذا لم يتوافر المعلم أو غاب كان البديل هو الكتاب .

وقد قامت إلى جانب الكتب المؤلفة بصورة طليقة مجموعة من الكتب موجهة أصلا للمتعلمين، أي هي كتب مدرسية أو دراسية بلغة العصر، والفروق جد محدودة بين هذين النوعين في السابق خلافا لما هو عليه الحال اليوم فهي في صغر حجم الكتاب ، وفي طي بعض التفاصيل . على أن هذا الاجتزاء عن التفاصيل جاءت الشروح والحواشي والتقارير لمعالجته . وبهذا الوضع لم يخرج الكتاب الدراسي من صميم المكتبة العلمية ، وظل محل تقدير المتعلم بعد الفراغ من دراسته إياه، أما اليوم فالمتعلم لا يعبأ بالكتاب المدرسي وكأنه في نظره مسودات أو ألواح يكتب فيها ثم تمسح. وربما لا يتجدد للطلاب في عصرنا الارتباط بكتب أخرى ضمن المجموعة الطليقة (أو المطولات) فتنقطع الجذور بينه وبين أوعية العلم وتحدث الفجوة وتفقد الأصالة، فلا طارف ولا تليد !

يضاف إلى هذا تلك المكانة الرفيعة التي كانت للمكتبات بالاهتمام بها واستقلالها من خلال نظام الوقف، وتعميم الانتفاع بها باستضافة المساجد لها .

وقـــد نشـــأت لخدمة الكتب صناعات وفنون معروفة كالخط والتجليد والزخـــرفة والتذهيـــب وصناعة الورق العربي، وشواهد ذلك لا تزال قائمة في المكتـــبات داخـــل العـــالم الإسلامي وخارجه، وكل ذلك يكشف عن خصيصة أساسية في التعليم الإسلامي هي الالتصاق بالكتاب [1] .

★★★

(١) أصالة حضارتنا العربية، ناجي معروف ٤٤٠ و ٤٧٢، خزائن الكتب القديمة في العراق، ناجي معروف ٢٥٩ شمس العرب تشرق على الغرب، هونكه ٣٩٠ .

أهم المراجع

- تذكرة السامع والمتكلم في أدب العلام والمتعلم، لابن جماعة، طبع حيدر آباد ، الهند ١٣٥٣ هـ .
- تعليم المتعلم طريق التعليم ، للزرنوجي ، دار إحياء الكتب العربية ، القاهرة .
- مقدمة ابن خلدون .
- آداب المعلمين، سحنون، دار الكتب الشرقية ، تونس ١٩٧٢.
- معالم القرية في أحكام الحسبة، لابن الأخوة .
- تقييد العلم ، للخطيب البغدادي .
- معيد النعم ومبيد النقم، للسبكي .
- الرحلة في طلب الحديث، للخطيب البغدادي .
- الرسالة المفصلة لأحوال المتعلمين وأحكام المعلمين والمتعلمين للقابسي، دار المعارف ١٩٦٧ .
- المحدث الفاصل بين الراوي والواعي، للرامهرمزي .
- الإلمام في طرق الرواية والسماع، للقاضي عياض، تحقيق السيد أحمد صقر، القاهرة .
- التربية الإسلامية وفلاسفتها، محمد عطية الأبراشي ، مكتبة عيسى الحلبي ١٩٦٩ .
- التربية الأخلاقية الإسلامية، مقداد يالجن، مكتبة الخانجي ١٩٧٧ .

- الأســـس القرآنية للتقدم، محمد أحمد خلف الله، سلسلة كتاب الأهالي ، القاهرة ١٩٨٤.
- من روائع حضارتنا، مصطفى السباعي، بيروت ١٩٧٧ .
- التربية عبر التاريخ، عبد الله عبد الدائم .
- تاريخ التعليم عند المسلمين، منير الدين أحمد .
- منهج التربية الإسلامية، محمد قطب، الطبعة الثانية بالقاهرة
- ديمقراطـــية التربية الإسلامية، سعيد إسماعيل علي، عالم الكتب ، القاهرة ١٩٨٢.
- القـــيم الروحـــية في الإســـلام ، أحمد فؤاد الأهواني ، سلسلة دراسات في الإسلام ، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية ١٩٦٢.
- خلق المسلم، محمد الغزالي ، دار الكتب الحديثة ، القاهرة ١٩٧٤.
- المذاهـــب الأخلاقية في الإسلام عبد الحي محمد قابيل ، دار الثقافة للنشر والتوزيع ، القاهرة ١٩٨٤.
- أصالة حضارتنا العربية، ناجي معروف، دار الثقافة ، بيروت ١٩٧٥.
- خزائن الكتب القديمة في العراق، كوركيس عواد .
- شمـــس العرب تشرق على الغرب، سيجفون هونكه، المكتب التجاري ، بيروت ١٩٦٤.
- إدارة وتثمير ممتلكات الوقف ، (ندوة البنك الإسلامي للتنمية ١٩٨٤) .
- التفكير فريضة إسلامية، عباس محمود العقاد، دار القلم، القاهرة .

★★★